

ثقافة غاندى

كتب غاندى فى صحيفته مرة عن الطالب والمطالعة : فقال
عن الأدب المكشوف : " لقد كان ريتولد - أحد الكتاب
المشهورين بوصف المناظر المكشوفة - صاحب حظ بين
الطلاب فى أيام تليفنى ، فلم أنج من قراءته إلا لأننى كنت أبعد
شيء عن أن أوصف بالطالب الألعى ، ولم أعن قط بالخروج
من نطاق الكتب المدرسية ، ولكننى ذهبت إلى إنجلترا
فوجدت مع هذا أن أمثال هذه القصص منفية من كل بيئة
متحشمة ، وأنى لم أخسر شيئاً إذ لم أطلع على واحدة منها . . .
ونحن نفهم هذه الكلمة فهماً صحيحاً إذا فهمنا منها أن
المهاتما ، لم يكن متبحراً فى المطالعة ، ولم يكن قط من أولئك
الذين يوصفون بين القريين بأنهم يبدان كتب أو أحلاس
مكتبات .

ولكننا نخطئ فهمها إذا خطر لنا أن نصيب الرجل من
الثقافة كان نصيباً تزرأ بين أمثاله ، أو أنه عاش فى عزلة عن
ثقافة الأمم الأخرى ، وبخاصة ثقافة عصره ، ونعنى بها ثقافة
القرن التاسع عشر على التخصيص .

خا واقع أن غاندى لم يكن منزور الخط من الاطلاع ،
بحال يمكن متصوراً في قرأته - أثناء التلمذة في أريكة - على
الدروس التي كان متخصصاً لها بحكم هذه التلمذة ، وعلى دروس
التشريع والعلوم السياسية .

فقد اطلع على أفلاطون وترجم منه د دفاع سقراط ، إلى
اللهجة الجوجرافية ، وهي لهجة الوطنية .

واطلع على كارل ماركس ، وجون ستينلورت ميل .

وأعجب بتولستوى الروسى ، ومائيسى الإيطالى .

وتابع آثاره ، وممكن ، وترجم له كتابه ، حتى هذا المصير ،

Unto this last إلى اللهجة الجوجرافية .

وكانت بقرأ د ما كولى ، ويستطيع أسلوبه وبراعته

في تعبيره .

وكان يستحسن ، ثورو ، الأمريكى ، ويعجب بمعيشته

وآرائه .

ودرس اللاتينية فاستطاع أنه يشوق فيها عيون الأدب

القديم في بلاغة الأصيلة .

وقليل من المصلحين الشرقيين في زمانه من أخذ بتصويب

من الثقافة العامة أولى من هذا التصيب .

غير أننا نخطئ مرة أخرى إذا فهمنا من هذا أنه تتلذذ
لواحد من هؤلاء وتوجه معه إلى وجهته الفكرية أو الروحية
وإنما كان يتجه إلى الكاتب أو الفيلسوف حين يحده في اتجاهه
الذى نشأ عليه بين أبيه وأمه ، فيختاره لأنه نهج من قبله
في طريقه المرسوم .

وخير ما يقال في علة اغتيابه هؤلاء الكتاب والمفكرين
أنه شبيه باغتيال الإنسان حين يحل في بلد غريب ، فيعثر فيه
على أناس يتكلمون بلسانه ، ويعرفون بلده ، ويذكرونه
بوطنه الأصلي .

فلم يعجب بأحد من كتاب أوربة في زمانه كما أعجب
بتولستوى . . قرأ قصصه الكبيرة والصغيرة ، وكتب إليه ،
واعترف بحوايه ، وأطلق اسمه على مزرعته التي أنشأها في أفريقية
الجنوبية للرياضة الجسدية والروحية ، وكان يستشهد به في عظاته
ومقالاته . فلم يجد مثلاً يذكره عند الكلام على تحريم التدخين
غير مثل السكران الذى قال تولستوى فى بعض أقاصيصه
أنه تردد عن الجرم وهو سكران ، ثم أقدم عليه بعد تدخين
سيجارته ، وهو مستريح إليه .

ولكنه أحب تولستوى لتبشيريه بالمقاومة السلبية ،
اجتناب العنف والثورة الدموية ، ولم تكن هذه المقاومة

بالاشعة واحدة من شعب العقيدة التي تشب عليها غاندى ،
وهي عقيدة « الامسا » التي تقدمت الإشارة إليها .

كذلك أحب « ثورو » لأنه كان يوصي بالاعتصيان المدني
Civil-disobedience ويتكلم بين أحضان الطبيعة .

ولم يستحق « رسكن » إعجابه بما كتبه عن تشد الفنون ،
وشرح مذاهب التصوير ، ولكنه استحق منه هذا الإعجاب
بزرعته « الثباتية » وإيمانه على الصناعات الكبرى ، لأنها تسخ
الإنسان وترده إلى عداد الآلات في تفكيره وعمله .

وكانت حقوق الإنسان وحقوق الأمم ، هي أهم ما استهواه
في ماتسني زعيم النهضة الإيطالية .

وكان الإنحاء على « رأس المال » شفيع كارل ماركس لديه
ولم يوافق في شيء غير هذا من دعوته إلى الثورة والانقلاب .
وكان يدرس « جون ستيوارت ميل » لأنه كان نبي الحرية
بين فلاسفة العصر الحديث ، وقرأ « ما كولي » ، لأنه عاش
في الهند ، وتكلم عن تاريخه وعلق بعض التعليق على أدبها
القديم .

ولم نعه قط مدرسة فكرية في بلاد الانجليز كما عني بمدرسة
المكتشفين الروحانيين « Theosophists » لأنهم هم أنفسهم
يرجعون إلى كتب الهند ، ومراجع الشرق القديم .

ومن عجائب أطواره في الثقف، أنه دان بكتب الهند الدينية ولم يطلع عليها في اللغة السفسكرية ، فلما وصل إلى إنجلترا قرأ سفر « البهاجفاد » Bhagavad Gita في ترجمته الانجليزية التي ترجمها السير « ادوين ارنولد » . وسماها بالقصة السماوية The Story Celestial .

فالرجل لم « يتكون » بمادة هذا الغذاء الذي أقبل عليه في أوربة ، ولكنه أقبل عليه لأنه صاحب « قابلية مكونة » تتغذى بما تشتهي ، وتختار لبنيتها ما يوافقها من الغذاء .

ويبدو لنا أن دروسه التي تخصص فيها لم تعطه من هذا الغذاء غير ما أراد أن يأخذ منها .

فقد تخصص للتشريع والعلوم السياسية ، ولكنه أخذ من هذه الدروس ما يوافقه في منحا ورسالة حياته ، ولم يستفد منه شيئاً في أعمال المعيشة أو خطط السياسة .
فقد تعلم ليكون محامياً في دور القضاء .

ولكنه لم يفلح في المحاماة ، وما كان ليستطيع أن يفلح فيها .

لأنه أبى كل الإباء ، حين عاد إلى وطنه ، أن يستعين بسمارة القضايا الذين كانوا عمدة المحامين الناشئين في

ترويج شهرتهم ، ولا يزالون كذلك إلى الآن .
وعز عليه في أول قضية قبل توكيلها أن يرهق المدعى
عليه بالأسئلة المخرجة ، فكان حرجه هو في المحكمة أشد من
حرج المدعى عليه .

وحدث في أفريقية الجنوبية أن صاحب قضية خدعه
عن حقيقة دعواه ، فأخفى عنه بعض الحقيقة وصور له بعضها
على غير صورتها . فلما اتضح له من مناقشة خصمه أمام
القضاء أن المدعى مبطل وأن المدعى عليه مظلوم ، نهض - في
كثير من الخجل - معتذراً للمحكمة ، طالباً منها رفض
القضية ، لأنه علم من حقيقتها في تلك الساعة ما لم يكن يعلمه
حين قبل الوكالة فيها .

ولما سافر إلى أفريقية الجنوبية ، كان سفره بدعوة
من أبناء إقليمه الذين كانت لهم تجارة واسعة في عدة بلاد
منها ، وكان عمله أن يساعد كبار المحامين من الإنجليز في
بعض قضاياهم الكبرى ، فلم يسترح ضميره إلى هذه الخصومة
التي ظهر له أنها في غير طائل وفي غير موجب ، وأنها قابلة
للسلح والتوفيق ، وجعل همه الأول أن يسعى في الصلح
بين الفريقين ، ولو كان في ذلك اقتضاب لطريقه إلى الشهرة
والارتفاع .

وأخذ على نفسه عهداً لا يطالب أحدًا بحق له من طريق المحاماة ، ولا يستخدم هذه الصناعة لنفسه ، ولا يستخدمها لغيره إلا دفاعاً عن مظلوم أو حق مهضوم .
وخوى ذلك أن هذا الرجل الذى لقبوه وصدقوا فى تلقيه : بالروح العظيم ، كان صاحب « روح » ناضج التكوين حين قرأ لثقافته ، وقرأ لصناعته على السواء . فلم يأخذ من تفكير عصره ، ولا من دروس صناعته ، إلا ما تطلبته « بنيته الروحية » ، وهى عالمة بما يصلح لها من غذاء ، ومن وسيلة قوة ونماء .

وكأنما ختم غاندى مطالعته الأدبية باختتام عهده فى المطالعات المدرسية ، فلم يرو عنه أنه توفر على قراءة قصة أو كتاب من كتب الأدب بعد عودته من البلاد الانجليزية . وصرف اهتمامه كله إلى دراسة كتب الأديان والعقائد على اختلافها . فقرأ القرآن والأناجيل فى ترجماتها الانجليزية ، وقرأ كتب الديانة الصينية والديانة المجوسية فى تلك اللغة ، وقرأ طرفاً من علم المقابلة بين الأديان ، وانتهى منها على أن الديانات العظمى جميعاً موحاة من عند الله ، وأنه لاخير فى تحول المؤمن من دين إلى الدين ، وإنما تصلح البرهمى

أو المسيحي أو المسلم بأن تجعله برهياً أحسن ، أو مسيحياً أحسن ، أو مسلماً أحسن . وذلك ميسور له مع البقاء على دينه ، مادام في دينه ما يوصيه بالحق والخير والصلاح والمودة لجميع الناس .

وقد لوحظ على غاندي أنه أغفل جانب الفن في عمله وفي وصاياه . فلم يشغل باله بالصور والتماثيل والشعر والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة ، واتفق مراراً ونافذوه على هذه الملاحظة ، وسأله غير واحد من المرعدين عنها فأجابهم بما أقنع بعضهم ولم يقنع الآخرين .

من هؤلاء طالب اسمه راماشندران Ramachandran قدمه إليه صديقه الانجليزي مستر ، اندروز ، فلتزعه أياً ما وجعل يناقشه ويستفسره في مضامين فلسفته واعتقاده . فكان جواب غاندي له حين سأله عن الجمال ما أخواه : إن الأشياء حقيقة وظاهر ، وأنه لا يحفل بالظاهر ما لم تكن فيه دلالة على الحقيقة الباطنة .

قال الطالب : أليس في الفن تعبير عن قلق النفس وجيشاتها بأحسن في كلمات وألوان وأشكال ؟
قال غاندي : ولكن أصحاب هذه الفنون لا يحفلون كثيراً بعمل الروح .

وسأله الطالب مثالا . فمثل له بفن أوسكار وايلد ، لأن
قضيته وكتبه كانت حديث الناس في أيام مقام غاندى بالبلاد
الانجليزية .

قال الطالب : لقد زعموا أنه أعظم فنان بين أدباء زمانه .
قال غاندى : نعم . . إنما كان وايلد يرى الفن الأعلى في
الصورة الظاهرة ، ولهذا نجح في تجميل الرذيلة ، وكل فن حق
فمن الواجب أن يعين الروح على تحقيق جوهرها الأصيل ،
وأننى فيما يخصنى أرى أننى أستطيع أن أصرف النظر عن جميع
المظاهر فى تحقيقى لجوهر روحى . وأستطيع أن أدعى أن فى
حياتى ما يكفى من الفن ، وإن كنت لا ترى حولى ماتسميه
آيات فنية ، .

قال الطالب : إنهم يجدون الحق فى الجمال .
قال غاندى : بل أحرى أن نجد الجمال فى الحق .
فسأله الطالب : ألا يمكن الفصل بين الاثنين ؟
فأجابه غاندى سائلا : أترى كل امرأة وضاحة الملامح
جميلة ، ولو كانت تنطوى على نفس خبيثة ؟
فقال الطالب : إن الفنان فى هذه الحالة يودع بين طيات
ملاحظها ما ينم على خبث نفسها .
قال غاندى : إذن نرجع إلى الباطن فى تحقيق معنى الجمال .

أو نرجع إلى أن الملاح الظاهرة ليست هي الجمال .
وعاد الطالب يسأله : كيف نفهم إذن أن كثيراً من
الآيات الفنية الجميلة قد خلقها أناس لم يكونوا على خلق جميل .
فقال غاندى : كل ما يفهم من هذا أن الحق ونقيضه
قد يتجاوران ، وأنهما لا يتفصلان في جميع الأحوال .
وختم هذا الحوار قائلاً : لا يكون شيء من الأشياء
جميلاً إلا بمقدار دلالاته على خالفه ، والافسكيف بغير ذلك
يوصف بالجمال .

وبدا على الطالب أن المهاتما أقنعه برأيه ، فتمنى لو أنه
يكتب في نقد الفنون على هذا الأسلوب ، فاعتذر المهاتما ،
لأنه لا يحسب نفسه من ذوي الاختصاص في نقد أعمال
الفنانين ...

وهذه ولا شك وجهة نظر ناسك ، معرض ، عن فضول
العيش وزخارف الأشياء ، ولكتبتا مع هذا وجهة نظر
يأخذ بها كثير من الكتاب الفلاسفة الذين يرفعون أعمال
الفن إلى الذروة العليا بين شواغل الإنسان في كل زمان ، ومنهم
أروين ادمان Irwin Edman الذي يقول في كتابه مسألة
الفلاسفة Philosophers Quest : « إن هذه اليقظة للسكون
كله — لا للصورة والتغمة — هي غاية كل من يسمون إلى اليقظة

الكاملة . ولا بد لهم — إذا أرادوا أن يبلغوا هذه الغاية — من أن يذهبوا وراء الفنون ووراء الفلسفة ، وإن ذهبوا إلى هذه الغاية من طريق الفلسفة نفسها . إلا أنهم لا ينبغي أن يقضوا عند خطوات النقاش والبحث والتفكير ، بل عليهم أن يذهبوا وراء الكشف والرؤية . ليروا ثمة أن الكون كله يصبح أمامهم كأنه الصورة أو اللحن في نظر الناظر وسمع السامع المستغرق في الرؤية والسماع . هنالك يبدو كل شيء واضحاً في سره وعجبه ، وينظر الشاب الذي راض روحه هذه الرياضة فإذا هو ناظر بكل ما فيه من قوى الروح التي استولى عليها هذا الشعور ، وإذا هو في يقظته قد تخلص من نفسه مضحياً مفادياً ليمتزج بما وعاه .

ومهما يكن من حكم النقد الفني على هذه النظرة ، فإن هذا النقد لا ينبغي — ولا يستطيع أن ينبغي — أن المرء قد ينظر هذه النظرة إلى الفنون ولا يحرم حظ المتعة بجانب من جوانب الجمال . وقد كان غاندى على التحقيق يستمتع من الجمال بكل طيب بسيط ، فكان يهرب للأناشيد الروحية ، ويبتهج برقص الأطفال ، ويهش لرؤية الأزهار والمروج ، وكان أسلوبه الكتابي نفسه أسلوباً رائعاً صافياً لا يخلو من نغم وجمال وإن خلا من كل تنميق ، وقد اعتبر الموسيقى

عاملاً من عوامل التربية القومية ولا سيما رياضة الجماهير ... لأن الجماهير تحتاج إلى النظام والانظام نسق ينهى عن الفوضى ، وأسف لأن الموسيقى في الهند نعمة مقصورة على الخاصة ، وقال غير مرة أنه يود لو استطاع أن يفرض تعليمها فرضاً وأن يشترط في جميع المؤتمرات الكبرى أن يحضرها كبار الموسيقيين .

ولا يخفى بعد هذا كله في مكان الفنون عند غاندى بالنسبة إلى الصناعات . فإن نصيب الصناعات من عنايته كان أوفر جداً من نصيب الفنون .

ولسكننا خلقاء أن نفرق هنا بين نوعين من الصناعات على حسب الآلات التي تستخدم فيها . فالصناعات التي يُسخر فيها الإنسان للآلة شر على ملكات الروح .

والصناعات التي تُسخر فيها الآلة الإنسان خير للملكات الروح .

تلك تجعل الإنسان عبداً للآلة ، وهذه تجعله سيداً للآلة وسيداً لنفسه ، وهذه هي تربية الروح وتربية الجسم وسبيل الاستغناء .

وكل شر في العصر الحديث ، على رأى غاندى ، فهو

راجع إلى تلك الآلات التي حولت الإنسان إلى آلة معلقة بها ، وزادت حاجاته فزادت أعماله ، وزادت - تبعاً لذلك - هذه العبودية للصناعة والمصنوعات .

وكل خلاص من هذا الشر فإنما سبيله وضع الآلة في موضعها ، وهي أن تصبح في يد الإنسان ، فلا يعمل يومئذ أكثر مما يحتاج إليه .

لهذا قرر في برنامج تعليمه أن تكون الصناعة اليدوية درساً إلزامياً لكل تلميذ في كل مرحلة من مراحل الدراسة ، وأخذت حكومة الهند الوطنية برأيه في برامجها الحديثة .

وهذه البرامج ، في رأي غاندى ، هي في وقت واحد تربية روحية وحل لمشكلة من أعصى مشكلات الاجتماع في الحضارة العصرية .

وليس هذا الرأى بخلو من الصواب .

لأن الحقيقة المتفق عليها أن حس الإنسان وعقله قد استفادا من مرانته على الصناعات اليدوية ، ويقول بعض علماء النفس المحدثين أن نمو الخلايا الصفراء في الدماغ قد نشأ من استخدام الإنسان لأصابعه وإبهامه ، وقد وافق غاندى على اعتقاده في شروق الصناعات الكبرى قائد عسكرى من نقاد التاريخ : هو الجنرال فلر Fuller صاحب كتاب التسليح والتاريخ

فقال في كتابه هذا : « إن الحرب وباء كامن في الحضارة
اللاوربية ، لأنها تدور في حلقة مفرغة من الحرب والصناعة ...
فإن القوى الآلية تؤدي إلى البطالة ، والبطالة تزيد في نزعة
الخصومة ، ونزعة الخصومة تتطلب عدواً تخاصم ، والسياسة
تدبر لها ذلك العدو ، فتأتي الحرب من ثم وتعالج مشكلة البطالة
إلى حين » .

• • •

إلا أن الثقافة التي زاوها غاندى لا تقاس في جوهرها
بمقياس الصواب والخطأ ، ولا بمقياس العلم والجهل في عرف
زمانه ، وامكنها تقاس على حقيقتها بمقياس المبدأ الذي يغلبه
على جميع المبادئ ، والأصل الذي يقدمه على جميع الأصول
عند نظره إلى صلاح الإنسان الذي يقاس بمقياس الدوام
فوق عوارض الزمن وعوارض الدول والجماعات .
فقد كان هذا الرجل يعلم كل شيء يحتاج إليه في رسالته
ولم يكن يجهل شيئاً يدخل في حسابه .

فإذا قاوم المخترعات الحديثة ، أو قاوم العلم الحديث ،
أو قاوم الطب الذي تشفى به الأجسام ، فهو لا يفعل ذلك كما
يفعله أصحاب الخرافة والجهود ، إذ أنه يعلم ما يجمله الخرافيون
الجامدون ، ولا يصدر في رأيه عن جهل بما فاتهم أن يعلموه .

ولكنه يقاوم ما يقاومه وهو عارف بقيمته كما يعرفها
معارضوه . إنما يعرف هذه القيمة ويعرف ما هو أعلى وأدوم
منها في اعتقاده ، وهي سلامة الروح .

فما سلمت به الروح فهو معرفة كافية .

وما عطبت به الروح فهو جهل منكر ، أو علم عارض
لا ينكر نفعه ولا ينكر ضرره ، وهو أكبر وأبقى ، وإن
سلمت به الأجسام .

غاندى وكبيل الجدي

كثيراً ما تسكون موازين الشعوب أصدق من موازين
الخود حين في تقرير مكلف العظم بين أبناء قومه ، ولا سيما حين
تطبع تلك البداة في تعبيراتها الفطرية التي تجمع الكثير من
المعاني في القليل من الكلمات .

وقد عرفت بداة الهند أين تضع غاندى من أمته ، فلم
تضعه موضع الزعامة السياسية ، ولا موضع القيادة الاجتماعية
ولسكنها وضعت موضع الأبوة المحبوبة الموقرة ، التي يحق لها
أن تطاع وينتظر منها أن تغفر بعض العصيان ، بدالة الأبناء
على الآباء .

لم تنظر إليه فطرتها إلى الزعيم السياسي . لأن السياسة لم
تسكن له غاية ولم يكن لها المقام الأول في سعيه ورأيه .
ولم تنظر إليه فطرتها إلى القائد الاجتماعي ، لأن القيادة
الاجتماعية في أكثر الأحيان قيادة حركة أو إرشاد في مرحلة
من مراحل التطور . ولم يكن غاندى قائد حركة ، أو دليل
مرحلة تقضى إلى غرض محدود .

بل هي لم تنظر إليه كأنه داعية نهضة ، لأن النهضة كثيراً

ما تتعلق بجيل واحد هو الجيل الناشئ أو الجيل الناهض
وترمى إلى تبديل لا يلبث أن يتلوه تبديل .

إنما نظرت إليه كأنه د أبوها ، المرموق بعين البر
والإجلال ، وكانت تدعوه بهذه الدعوة المستحبة : بابو جى .
أى يا أبتاه .

وقد كان كبار القوم وصغارهم ينادونه بهذا النداء ، ومنهم
من هو فى سنه ، ومن هو أسن منه ، لأنه تمثل لهم فى صورة
وطنهم الروحانى الخالد ، أو فى صورة الأبوة القومية
Fatherland التى لا تقاس بأعمار الآحاد .

ولم تكن له من ثمة رسالة خاصة إلى الجيل الجديد ،
لأن أقدم الأجيال وأحدث الأجيال فى رسالته الروحانية
يستويان .

فكانت ناشئة الهند تحبه ، وتجله ، وتثق به ، وتستحى من
إغضابه . وكانت لقداسته مكانة خاصة بينهم ، لأنه قدس صنع
نفسه ولم تصنعه المسوح والمحاريب : تعلم كما تعلموا ، وكان فى
وسعه أن يطمح إلى مظاهر الدنيا كما يطمحون إليها . فبينه وبينهم
قاربة لا يشعرون بها فيما بينهم وبين أحبار الدين الذين سيقوا
إلى القداسة بحكم الصناعة ، وله عندهم مكانة العقيدة التى
يعتقدونها ومزية النشأة العصرية التى نشأوا عليها وكرامة

والهندي ، الذي جعلهم يفخرون بالهند بين الأمم ، وجعل
لروحانية محلا مرعياً بين مذاهب العصر الحديث . ولستكنهم
— على ما نظن — كانوا يحارون في أمره كما كان يحار فيه كل
من سمعوا بدعوته ، ولا يرون أنه يدعوهم إلى خطة يمكن
العمل بها في مجال السياسة أو مجال العيش أو مجال الأخلاق .
ومنها من كان يصارحه القول في هذا ، ولا يمنعه الحب
والتوقير أن يكتب إليه ، أنه لا يحسبه يفهم ما يحول في خواطر
الشباب .

وكانت وصاياها في مسألة النزعات الجنسية أعمر شيء على
الشباب أن يستجيروا إليه بضبيعة الخان . فلما أكثر من الكتابة
في ضبط هذه النزعات وأوصى الأزواج من الشبان والشابات
مرة بعد مرة أن يمتنعوا عن العلاقة الجنسية لغير النسل ،
كتب إليه أحدهم يقول : « إنني أقرأ ما تكتب فيخامرني
الشك في فهمك للعقل الناشئ ، فإن ما استطعته أنت ليس
من الضروري أن يستطيعه جميع الشبان . وإنني لمزوج وقادر
على ضبط نفسي ، ولكن زوجتي ليست مثلي ، وهي كذلك
لا تريد الآن أطفالاً . وتريد أن تعطي نفسها حظها فماذا
تري أن أصنع . . أليس من واجبي أن أرضيها ؟
والواقع أن العطاء من أبناء جيل قد يفوتهم أن يفهموا

الجيل الذى يذمها بعد زمانهم . ولكن المسألة هنا ليست مسألة جيل قديم وجيل جديد ، لأن النزعات الجنسية غير مجهولة فى جيل من الأجيال أو أمة من الأمم . ولو أن غاندى قال ما قاله عن النزعات الجنسية قبل ألف سنة لكان موقفه من أبناء ذلك الزمان كموقفه من أبناء زمانه ، وهو يعلم ذلك ولا يجهله . وقد أجاب الطالب الذى وجه إليه ذلك الخطاب بما فى هذا المعنى . ثم قال له : إن ضبط النفس لا يعنى أن تكف عن العمل الجنى وحده ، وإنما يعنى الكف عن الإغراء وعن التغذية المثيرة وعن الملامسات الذهنية والحسية كما يعنى القدرة على تحويل الغريزة إلى وجهة غير وجهتها الجسدية بما يشغل النفس من شواغل العطف والفكر والمحاسن الروحانية . ولكنه إقناع لا يخفق مع سامعيه اضعف فى الحجة أو نقص فى البيان ، بل لقوة فى الغريزة ، ورغبة عن الاقتناع .

كذلك كانت وصايا غاندى بالمسالمة فى وجه كل عدوان تتجاوز طاقة الاحتمال . فإن الجيل الجديد كان يصغى إليها ، وكان لا يكفر بالاهمسا ، التى تلقاها مع موروثاته من مئات السنين ، بل ألوف السنين ، ولكنه كان يتكلف عتاً حين يتكلف كظم الفتوة التى تغلى فى دمه ، وكان يستحى أن

يغضب . المهاتما ، إذا نوى الصيام احتجاجاً على أعمال العنف والمقاومة الدموية ، فيمسك عن المقاومة إلى حين ، وهو يعلم أن المهاتما يكلفه ما لا يطيق .

إلا أن غاندى مع هذا لم يهبط في نظرهم ، بل ارتفع إلى مقام الآلهة والأنبياء ، فجعلوا وصاياه من قبيل وصاياهم ، وجعلوا عصيانهم لها مسكرهين من قبيل عصيانهم للوصايا الإلهية حين تقصر عنها طاقة البشر ، وإن كانت عندهم أهلاً للإيمان ، وأهلاً للاتباع .

ومن الأمور التي لها دلالتها في هذا الصدد أن غاندى مات بيد شاب جاوز الثلاثين ، فكان هذا أعنف اصطدام بينه وبين مخالفه ، ولكنه لم يكن اصطداماً بينه وبين شاب من أنصار التقدم أو أعداء القديم ، بل كان اصطداماً بينه وبين شاب يتعصب للقديم ولا يقبل التسامح فيه .

ومن هنا يبدو لنا محور المشكلة في دعوة غاندى أو محور الصعوبة في مجازاة هذه الدعوة . فليست هي مشكلة الصراع بين عقل قديم وعقل حديث ، ولكنها هي المشكلة الأبدية التي لا تزال قائمة مع كل إصلاح ، واتى بها مشكلة التغلب على الطبيعة البشرية ، أيأ كان تفكير المصلح أو تفكير المخالف ... وهي معركة باقية لا تتغير في العسر أو اليسر بين جيل وجيل .

... والمرأة

يقول الذين يعتقدون تناسخ الأرواح من الهنود ، إن الذى يلد يولد ، وإن الإنسان يعود إلى عالم الجسد ما دام يلد الأبناء ويخرجهم فى عالم الجسد . وإنما ينفصل من المادة ، ويتصل بعالم الروح ، ويفلت من سلسلة الولادة المتجددة ، بعد انقطاعه عن كل صلة جنسية ، وقيامه بفروض النسك والتبتل .

فولادة النسل عمل يحزى عليه الإنسان بالعودة إلى الولادة . ويستوى فى هذا الجزاء الرجل والمرأة . فليس فى الديانة الهندية لعنة خاصة بالمرأة فى الإغراء على الخطيئة . ولهذا يندبون الذكور والإناث إلى ضرب من الزواج تنقطع فيه العلاقة الجسدية بين الزوجين ، وتقوم الصلة فيه بينهما على العلاقة الروحية دون غيرها .

فكانت هذه الروحانية أشد على المرأة الهندية من لعنة الخطيئة التى لاحقها فى الديانات الأخرى .

لأنها أنشأت فى الهند زواج الأطفال ، وأنشأت فيها عادة إحراق الأياشى مع أزواجهن ، ثم منعت الحكومة الإنجليزية

إحراق الأياى فاستبدل به التأيم وتحريم زواج المرأة بعد موت زوجها الأول مدى الحياة .

ويتفق أن يموت الزوج وهو فى العاشرة أو دون العاشرة . لأنهم قد يعقدون الزواج بين الطفل والطفلة فى السنة الأولى من عمرهما ، ولا يندر ذلك بالنسبة إلى زواج الكبار . فإن نسبة الأطفال الذين عقد زواجهم قبل تمام السنة الأولى من عمرهم قد بلغت ثمانية فى المائة خلال سنة ١٩٣١ ، وبلغ عدد الأياى فى هذه السن أكثر من ألف وخمسمائة ، وبلغ عدد الأياى من تجاوزن الثالثة ولم يتجاوزن الرابعة أكثر من تسعة آلاف .

فتولد البنت ثم تتأيم قبل أن تبلغ مبلغ النساء ، وتظل أيتما إلى أن تموت ، وهى حرام على غير زوجها الأول . لأن لها روحاً واحداً ، وهى بهذا الروح لا تنفك عن روح ذلك الزوج .

وكان غاندى مؤمناً بتناسخ الأرواح أقوى الإيمان . حتى لقد كتب مرة أن تناسخ الأرواح عنده أكثر من عقيدة لأنه حقيقة واقعة كهذه الشمس الطالعة . وكان كذلك يؤمن بوجوب الانقطاع عن علاقات الجسد لبلوغ ، الموكشا ، أو الخلاص .

ولكنه كان ينكر زواج الطفولة ، كما ينكر تأيم
الأطفال ، وكان له عمل مشكور في إصلاح الزواج وإبطال
عادة التأيم . بل كان يوصي الشبان باختيار زوجاتهم من
بين المتأيمات خاصة ، لأنهن لا يحسنن متزوجات بأى
حسبان صحيح .

وقد ثار عليه أنصار القديم أعنف ثورة حين تصدى
لإبطال هذه العادة وأعلن نصيحته للشبان بالتزوج من البنات
المتأيمات . كان هؤلاء الجامدون يطبقون أن يبتلوا هذه
العادة عملاً ، ولكنهم لا يطبقون أن يقدر فيها زعيم من
زعمائهم علانية كأنها سخف لا يجوز اعتقاده ولا يجوز اتباعه .
إلا أنه لم يحفل بشورتهم عليه . لأنه كان على ثقة من أن هذه
العادة التى تصدى لإبطالها ليست من الدين وليست من العقل
ولا من الخلاق الإنسانية .

كان ينكر أصلاً أن إحراق الأرملة على جثة زوجها
قد أمر به الدين البرهمى فى كتاب من كتبه المعول عليها .
وكان يقول أنه لو صح أن إحراق الأرملة على جثة زوجها
واجب لاتصال روحيهما ، لوجب مثله إحراق الزوج على جثة
امراته المتوفاة ، وأن إحراق إنسان حى لا يحى أحداً بل
يزيد فى عداد الأموات .

وكان يقول إن الرهبانية المقصودة هي رهبانية من يغائب غواية الجنس ويقوى على مغالبتها ، فلا رهبانية للطفل ولا للطفلة قبل بلوغهما مبلغ الرجال والنساء .

أما الزواج عامة فهو فيه وسط بين المنع والاباحة . فلا ضير من العلاقة الزوجية ولا موجب للتدخل منها ، ولكن بمسوغ واحد : وهو طلب النسل لا طلب المتعة الجسدية . وقد سأله بعضهم عن المعوقات لمنع النسل في بعض الحالات التي يتنى فيها الوالدان كثرة البنين والبنات ، فحرما كل التحريم ، وقال إن اتصال الزوج بزوجة لمحض اللذة لاحجة له أقوى من حجة الشذوذ الجنسي البغيض ، ولا مسوغ له أشرف من مسوغ المتعة الجنسية التي يجدها شواذ النساء ، وشواذ الرجال .

أما الموكشا ، أو انطلاق الروح من جميع الشهوات الجنسية فهو الكمال الذي يتوخاه من يطيقه ، ولكنه لا يفرض على جميع الناس .

سأله الطالب رامشاندرا — وهو من تلاميذ صديقه الإنجليزى مستر اندروز — لماذا يبشر بالموكشا ؟ فقال : لأن الزواج في غنى عن التبشير . حسب دافع الغريزة داعياً إليه .

قال الطالب : أليس في ذلك خطر من انقراض النوع
الإنساني ؟

قال : كلا . بل في ذلك تصفية النوع الإنساني وتهذيبه .
قال الطالب : أليس من واجب العبقري أن يعقب
عقبياً مثله ؟

قال : إن عبقريته تعقب له أبناء أكثر مما يستطيع
أن يلد .

وسئل مرات عن الطلاق كما سئل مرات عن الزواج .
فكان يأبى تفسير أسباب الطلاق ، ويقول إنه لا يحل مشكلة
الزوجين . فإن المرأة التي لا تجد من زوجها حسن المعاملة
لا تنتفع بالطلاق ، ولعلها لا تجسر على طلبه . وإنما يأتي حسن
المعاملة من معرفة المرأة بحقوقها وتعليمها الواجب لها
والواجب عليها ، وعندئذ تقل الحاجة إلى الطلاق أو تصبح
الحالة في المجتمع خيراً من إكثار المطلقين والمطلقات فيه
لجهل الزوجين بما بينهما من الحقوق والواجبات ، وكأنه
كان يرى - وكان على حق فيما يرى - أن الهند تنتقل في حياتها
الاجتماعية نقلة طاقرة لو تحولت من زواج أبدي ينهى
بإحراق الزوجين على كومة واحدة : إلى زواج يباح فيه
الطلاق لأهون الأسباب .

ويضرد مع هذا الرأي أن يشجع غاندى كل حركة تساعد المرأة على الاستقلال والكرامة . وهكذا كان في مسألة ، حق الملكية ، . . . فإنها كانت مثار خلاف بين الهنود عند البحث في تقرير حقوق النساء المدنية والسياسية . فكان الاكثرون منهم يتوجسون من إباحة حق الملكية للمرأة لأنه يغريها بالنشوز وقلة الاكثراك لمرضاة زوجها عنها . وكان غاندى على خلاف هذا الرأي يبيع الملكية للمرأة كما يبيعها للرجل ، ويسأن معارضة : من أفسد حق الملكية أخلاق الرجال وعلمهم فله الاكثراك لمرضاة الزوجات ؟ إذن ليكن شأن النساء كشأن الرجال . فلا قيمة للأخلاق التي تنبى على عجز إنسان من الناس عن الاستقلال برأيه ورزقه ، وليست الأخلاق أخلاقاً إلا إذا جاءت من محض الاختيار ووحى الضمير .

على أنه لم يكن يستحسن للمرأة أن تتعلم لتعمل في كسب المعيشة وتتمرس بأعباء التجارة ومغامرات السوق ، ويؤثر لها العمل في البيت على كل عمل في معترك الحياة .

وكان يوجب شراً من الحرية التي تبيح العبث واللعب بالعاطفة . وكتب مرة يقول : أخشى أن يكون من هوى البنت العصرية أن تلعب لعبة جوليت مع ستة روميات ،

في وقت واحد ، وذلك من فاقة النفس لا من حرية الإرادة
واستقلال الشعور .

وقد واجهته مشكلة النسوة اشقيات اللواتي احترفن البغاء
بعضلة مضية . فإنهن يتجاوزن على حسب تقديره خمسة
ملايين امرأة في أرجاء الهند كلها ، قياساً على عددهن في بلدين
زارهن فيهما . وهما : كوكونادا وباريسال ، فمنهن من أربت
على الثلاثين ومنهن من لم تبلغ الثانية عشرة ، وكلهن لا يطمعن
في الزواج ولا يجدن من يقبلهن زوجات إذا طمعن فيه . فكان
يؤاسى من يلقاهن منهن ويدعوهن بالأخوات ، وكان يدير
لهن وسائل الاشتغال بصناعة النسيج ، ويوصي القائمين بمقاطعة
البضائع الانجليزية بتفضيل منسوجاتهن لإغنائهن عن التبذل
في سبيل كسب العيش ، وإحياء كرامتهن بالمساهمة في هذه
الحركة القومية ، ورحض عار الدنس والمهانة عن نفوسهن .
وكان يوده أن يلقي العبد الأكبر في مهمة إصلاح
هؤلاء البائسات على حرائر الهند ينشئن هن الملاجيء ويهيئن
هن الخدمة الصالحة في البيوت ، فحالت التقاليد بين حرائر
النساء وبين النجاح في هذه المهمة . ورأى غاندى أن يجندهن
لقضية من قضايا الهند الاجتماعية لا تقل عن قضية المرأة
المنبوذة : وهى قضية الطائفة الكبيرة التي عرفت في الهند باسم

المسيوذين أو الأنجاس ، وهم أحق الناس أن ينتفعوا بعطف المرأة عليهم فيما ضرب عليهم من الذلة والشقاء .

قال في خطاب ألقاه على نخبة من السيدات والفتيات :
« إنه لمن الفواجع أن الديانة في زماننا هذا أصبحت لا تعنى شيئاً غير الامتناع عن بعض الطعام والشراب ، أو الترفع عن بعض الطبقات . ولن تكون هناك غياوة أغلظ من هذه الغياوة . فإن الموالد ومراسم التقاليد لن يباط بها رجحان للمرأة أو نقصان ، وإنما مناط ذلك كله الأخلاق ، وما خلق الله الناس وعليهم علامة الرفعة والدنائة . وما من كتاب يدمغ إنساناً بالخسة أو النجاسة منذ مولده يستحق منا الرعاية والاحترام . إنه ليحمد الله ويحمد الحق الذي هو الله . وما كان الله وهو الحق والصدق والعدل ليرضى عن ديانة تنظر إلى خمس أبناء هذه البلاد كأنهم أنجاس لا يجوز مسهم . . .
وإنى لأريد منكن أن تبرثن أنفسكن من هذه الشناعة البالغة فالنجاسة التي تأتي من العمل النجس موجودة . ولا بد أن تقترن بكل عمل نجس وتلحق بكل أحد منا يتغمس فيها . ثم تفارقنا حين نفصل أنفسنا من الضر والوضر ، فلا تلزمنا النجاسة ، ولسكنه ما من عمل أو مسلك يدمغ رجلاً أو امرأة بالنجاسة أبد الأبد . »

ومن ثقته بذخيرة العطف في نفس المرأة أنه كان يعول عليها في معركة الكبري ، وهي معركة « الالهسا ، أو مقاومة العنف بالصفح والإحسان .

كان يعول على نساء الهند في الهند وعلى نساء العالم كله في العالم كله . لأن المرأة في كل مكان هي رمز التضحية ومثال الغفران والاحتمال ، وهي في معركة « الالهسا ، تصنع ما يصنعه الرجل وتزيد ، ولسكنها في معركة العنف لن تزال هي الجنس المغلوب .

فلما عرج على إيطاليا في طريق عودته من إنجلترا سأله السيدات الإيطاليات كلمة لمن فقال هن - وإيطاليا يومئذ في ظل الحكومة القاشية - : « إنسكن تستطعن ما لا يستطيعه الرجال من محاربة العسكرية ، قلن لأنفسكن ماذا يصنع قادتكن وجنودكن إذا كان نساؤهم وأمهاتهم وبناتهم يأتين أن يشتركن في الأعمال العسكرية . »

وقال للسيدات في لوزان حين سأله أن يدلن على درس يتعلمنه من المرأة الهندية : تعلمن منها الالهسا . . . فإن أوربة إذا « شربت » هذا الدرس فإتما تتناولنه من أيدي بناتها .

• • •

وجملة القول إن علاقة هذا الرجل بالجنس الآخر لم

تسكن إلا علاقة قائد جيش يوجه فرقة منه إلى الحملة التي
تقدر عليها في معركته الكبرى ، وهي معركة السلام .

ولم تعرف الدنيا له علاقة بالنساء عامة غير هذه العلاقة .
ولكن الدنيا كانت خليفة ألا تعرفه على الإطلاق من
جاء المرأة ، أو كانت خليفة أن تعرفه في صورة أخرى
أبعد مما تكون عن صورة القداسة : صورة زير نساء ،
أو فتى من فتيان الأندية والسمرات .

فإن القديس لم يولد قديساً . وذلك مفخرة من مفاخره ،
لأن قداسه كلفته شيئاً عسيراً من مغالبة نزعاته ، ولم يجد لها
حين أرادها سهلة ميسرة على طرف النعام
كان للمرأة هوى شديد في نفسه .

وكان لا يطبق الابتعاد عن زوجته في السنين الأولى من
إقامته بها ، فكان مريض أليه — على إعزازه لأبيه —
لا يحول بينه وبين الإسراع إلى مخدعها كلما سئحت له
الفرصة من غفوة المريض أو استغاثته عن ملازمته . وخرج
مرة من حجرة المريض على عادته ، فجاءه النبأ بعد هنية بأن
أباه قد مات .

وظل حياته كلها يقرع نفسه على هذا العقوق ، أو هذا
التهافت على الشهوات .

وهمّ أربع مرات أو خمساً بمقاربة نساء غير زوجه ،
ولكنه لم يسترسل في نزواته هذه لمصادقات عاقته ، كما قال في
ترجمة حياته ، ولعله من تواضعه يحيل الأمر إلى المصادفة
ولا يحيله إلى قوة العفة في طبعه .

وغاندى ، ولا شك ، مثل من أندر الأمثلة على قوة المناعة
التي يكسبها الإنسان من التربية الدينية والنشأة المنزلية في
مقاومة الشهوات الجنسية وغيرها .

وربما أعانته على ذلك طبيعة فيه عرف بها في جميع أطوار
حياته من صباه إلى شيخوخته ، فإنه خلق مطبوعاً على الحب
الشامل الذي لا يميز أحداً عن أحد ، ولم يخلق لاختصاص
أحد بحبه وهواه ، من الرجال أو النساء . فلم يكن له صديق
واحد منفرد بحبه وتمييزه ، وكتب هو في ترجمة حياته فانتقد
هذا النوع من الأثرة بالصدقة ، وقال عنه : أنه لا يؤدي
إلى خير .

ومع هذا كان في هذا الرجل فتنة خاصة لبعض النساء .
فمكن بهجرن الدنيا ليلتحقن به في صومعته ويعشن إلى جانبه
عيشة الفاقة والشظف .

لا جرم أن الرجل القوي يظل فتنة للمرأة ولو كانت قوته
في ترك المرأة .

ترى هل كانت امرأة من النساء تظفر بالمعجيات اللاتي يهجن
الحياة من أجلها لو نسكت مثل هذا النسك وتقصفت مثل هذا
التقصف ؟ إنهن إن أقبلن عليها أقبلن على كل حال مشتركات
في مواساة واحدة ، ولم يقبلن مقدسات ولا معجيات .

ومن النساء اللواتي كن يلذن به فتيات غير هنديات . منهن
انجليزيات وأسيكيات . جذبن إليه شعور قلوب نحو الحضارة
الغربية ، وإيمان صادق بأنه معطين من سلام الروح
مالا يأخذنه من تلك الحضارة التي أوشكت أن تقلس ، فلا
تقوى على إعطاء .

وكانت أعظم عبقرية نسائية أخرجتها الهند - وهي
الشاعرة : نايدو - تؤمن به ، وتخلص له ، وتصمد إلى جانبه
حين يتخلى عنه المعارضون لسياسته السلبية في أوقات السخط
والهياج ، ولم تتخله قط في وقت من الأوقات .